

البعد الفلسفي في روايات "مارغريت دورا"

د/ إميمون بن براهيم

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

Abstract:

This article is the fruit of an interesting talk of the Department of Philosophy Benny and my colleague the late Professor: Hamid Hammadi, on a brief study issued in 2008, I read at the time, the character of a French woman engaged in the fields of art and literature and philosophy, wrote novels, plays and She has always been at the forefront of feminist and political movements with her known positions, including a position taken in May 1968. With regard to the Algerian war, Margaret Doura is one of the most important postmodernist writers and one of the 50 fundamental contemporary thinkers with a clear influence in the arena. Literary and intellectual, French and international.

الملخص باللغة العربية:

يمثل هذا المقال ثمرة استذكار لحديث ممتع جرى بقسم الفلسفة بيني وبين زميلي الأستاذ الراحل : حميد حمادي، حول دراسة مختصرة صدرت عام 2008، قرأتها في حينها، عن شخصية امرأة فرنسية اشتغلت في حقول الفن والآداب والفلسفة فكتبت روايات، ومسرحيات وصنعت أفلاما سينمائية، وكانت دائما في طليعة الحركات

النسوية والسياسية بمواقفها المعروفة، ومنها موقف اتخذته في ماي 1968. بخصوص حرب الجزائر، إنَّها " مارغريت دورا " إحدى أهم كتاب ما بعد الحداثة، وواحدة من الخمسين مفكرا أساسيا معاصرا، ذات التأثير البين في الساحة الأدبية والفكرية، الفرنسية والعالمية.

Key words: Film Thought, Margaret Dura, Communist Party, Psychoanalysis

الكلمات المفتاحية: الفكر السينمائي، مارغريت دورا، الحزب الشيوعي، التحليل النفسي

مقدمة:

لقد ذكرتنا — أنا وزميلي — طباعة كتابات "مارغريت دورا" بإبداعات كبار الفلاسفة أمثال: ستندبرغ، بودلير، سارتر، أندريه جيد وكثيرين ممن أرسوا لما يسمى فلسفة الروح (الذاتي، والمطلق) على حد تعبير هيجل¹.

فإذا نظرنا إلى روايتها العاشق التي نالت عنها جائزة غونكور عام 1984، نجدتها اقتطعا أamina لجزء من حياتها الخاصة، و بتأثير منها، إذ أنه بعد طلاقها من زوجها الأول "رويت أنتليم"، وقعت في حب "جان ماسكولو" وأنجبت منه ابنا، أنساها في مولودها الذي أنجبته ميت مع طليقتها "رويت أنتليم"، هذا الأخير الذي تأملت كثيرا لاعتقاله، وإرساله إلى معسكر "بوخن فالد"، وظلت تنتظر إطلاق

سراحه، وترجمت هذا الانتظار المؤلم عبر روايتها الشهيرة: "الأم"².

ولعل الأم رافق دورا باستمرار، وانطبع في حياتها كسمة بارزة منذ نعومة أظفارها، وذلك حينما وجدت نفسها مع أمها، وأخويها اللذين يكبرها سنا بمفردهم، يعانون شظف العيش، ويرتحلون باستمرار بين المساكن في كمبوديا والفيتنام، بعد رحيل الأب إلى فرنسا، إثر إصابته بمرض عضال في كمبوديا، التي عين فيها مدرسا للرياضيات عام 1918، وتوفي بعد فترة قصيرة من رحيله.

المتن:

ما يلاحظ على كتابات دورا أنها لم تركز على " تطوير الأفكار، أو على الجانب التجريبي للفن، بل أنها تركز على التجارب العاطفية التي تصعب ترجمتها إلى شكل رمزي: الصمت، العجز عن الإفصاح.. الحزن العميق"³، وهي - كما أسلفنا - أمور جليلة في كتاباتها، ومن صميم جهدها الفني، إلى درجة انتفاء الحدود الفاصلة بين حياتها الخاصة وحياتها العامة، من خلال مناداتها دوما بالمساواة بين الرجل والمرأة، كمبدأ لتحقيق التوازن العاطفي في الحب والرغبة والمعاناة والفناء .

إن حياة دورا الصاخبة، غير العادية، وغير المستقرة، انكشفت بشكل جلي ومحسوس في كتاباتها كمثال: "الوقحون" الذي يعد أول عمل روائي كتبته، ويمثل نقطة تحول في حياتها الفنية والخاصة، ويرجح أنه من وحي الاحتلال الألماني، الذي انضمت دورا بسببه إلى حركة المقاومة الفرنسية إلى جانب "فرانسو ميتران" وانخرطت أيضا في الحزب الشيوعي الفرنسي الذي طردت منه سنة

1950، نتيجة ثورتها على بعض مواقف الحزب اتجاه بعض القضايا الراهنة وقتذاك.

ومن هذا الباب تحديدا، ولجت "جوليا كرسيفا" لتقرأ ملامح كتابات دورا في إطار التحليل النفسي، وتقرر بأن الكتابات (الدوراسية) تلمح إلى أعراض عامة لعالم أفلست فيه اللغة والتمثيل عن التعبير، في ظل الوقائع والأحداث التي تميز ساحة القرن العشرين .

ومن جهته، ينتقد " ليسلي هيل" هذه القراءة، وبخاصة تلك الإستخلاصات حول رواية "سلب لب لول ف . شتاين"، ويجزم بأنه لا توجد وقائع حياتية ثابتة بشكل مطلق تتصل بحياة دورا، وإن عدم التحديد هو ملمح جوهرى للقصة، وفي ذلك تأكيد للوضع الإشكالي للهوية بوصفه نموذجاً لأزمة التمثيل التي ميزت نهاية القرن العشرين . إن ما ذهب إليه "ليسلي" في التعقيب على قراءة "جوليا كرسيفا" وغيرها من المناقشات التي قامت حول الرواية بعد ظهورها عام 1964، خصوصاً فيما يتعلق بإشكال الهوية والتمثيل، يحيلنا إلى مسألة الأعمال الأخرى لدورا، لا سيما تلك التي التي ترتبط من خلالها رمزيا وعاطفيا بغير وطنها فرنسا، مثل سيناريو فيلم "أغنية الهند" (1974) عن روايتها: نائب القنصل، وسيناريو فيلم: "هيروشيما حبيبي" (1985)، هذا الفيلم الشعري الذي أخرجه: آلان رينيه⁴، وكان في إكساب مارغريت دورا إعجابا جماهيريا كبيرا، وشهرة واسعة في الوسط السينمائي العالمي.

وإذا ما ربطنا هذين العملين المؤلفين، فضلا عن رواية "عاشق من الصين الشمالية"، بحياة دورا الشخصية، نقف حقيقة على ما ذهب إليه "ليسلي" بأن الكثير " من المشاهد والشخصيات في ذخيرة دورا الأدبية .. متعلقة بسيرة حياتها الذاتية"⁵، بتفاوت، وبشكل غير ثابت. وفي نفس اتجاه "جوليا كرسيفا"، ذي الطابع التحليلي

النفسي، الذي يلح على الغياب التام للأب والحضور اللافت للأم في روايات دورا، كرمز مكثف لعاطفة التجربة المعاشة، يذهب " جاك لكان" إلى تأويل رواية "سلب لب لول ف. شتاين"، بسردها المعقد، بأنها المحاولة المتكررة لإعادة تذكر المشهد الأولي الذي سبب الصدمة⁶، ويعتبر الرواية تطبيقا حيا لتعاليمه في التحليل النفسي.

ومن ناحيته، يتحدث الناقد الفرنسي " جان بيرياميت" عن رواية "العاشق"، من منطلق مقارنة السيرة الذاتية لمارغريت دورا بتجارب بطلة الرواية فيقول: "دورا لا تكتب الكتاب، ولكنها تعيش فيه مثلما يعيش الإنسان داخل شعائر دينه . فكل فقرة من الرواة تحمل شحنة التجربة الوجودية⁷.

إن ما كتب عن روايات ومسرحيات وسيناريوهات مارغريت دورا، بكل لغات العالم، يعد بالعشرات، غير أن اللافت للانتباه هو تركيز هذه الدراسات النقدية، وحتى الأكاديمية منها، على سيرتها الذاتية في مقابل إبداعاتها، ونجد التركيز فيها تحديدا على علاقة روايتها بطفولتها، و بنضالها ضمن الحركة النسوية، وفي حركة اليسار السياسية، بالإضافة إلى ما اكتنف هذه الإبداعات من معاني الحياة والصراع والحب والانفعال، مما أهلها لأن تكون لسان حال البؤساء والبطالين والفقراء والنساء أو كما قيل عنها أنها صوت الجسد المتألم.

وبنظر كثير من النقاد والمختصين في سيرة وكتابات مارغريت دورا، تمثل رواية العاشق، التي حققت أكبر المبيعات (ثلاث ملايين نسخة) بعد تتويجها بجائزة غونكور، وترجمتها إلى ثلاثين لغة، منعظا خطيرا في حركة الرواية الجديدة، فهي تحكي قصة عجوز في سن السبعين، أحبت طالبا في قسم الفلسفة يدعى " ليان" وعمره سبعة

وعشرون عاما، دأب على مراسلتها لمدة خمس سنوات، وانبهرت به وبموهبتة وذكائه دون أن تراه، فأحدث بخطاباته ثورة في حياتها العاطفية، ومعه اكتشفت العجوز معاني الحب والسعادة.

في هذه الرواية بالذات، يتلمس القارئ خيطا رفيعا بين أحداثها وتجارب بطلتها وبوحها، و بين السيرة الذاتية للكاتبة، أو لنقل إنها تجارب دورا نفسها، تجارب فيها من الندم والحزن والفقد والأحلام المؤجلة، ما يجعلنا نتعرف إلى أعمق الألام التي شهدتها هذه الكاتبة التي كانت مهوسة بالجمال، وشغوفة بمقدار التأثير في الآخرين⁸.

وبالنظر لحجم التأثير التي أحدثته الرواية في أوساط جيل النقاد والمثقفين، ألح المخرج "جان جاك أنو" على صديقتها دورا لنقل الرواية إلى السينما، وشارت في خط السيناريو بعد تعافيا من عملية جراحية أقعدتها بالمستشفى لمدة طويلة (1988 – 1989).

وبعيدا عن موضوع الرواية، أو الإطار الجمالي للموضوع الإبداعي⁹ الذي يمزج بين الخيالي والسيرة الذاتية، ويؤلف بين الثنائيات: الذاكرة/العاطفة، الشعور/الغريزة، الانتشاء/الفناء، فإن الكاتبة اعتنت بالبنية الحوارية، على اعتبار أن الحوار هو الإطار الأمثل لصياغة السيناريو، وكتابته بلغة سينمائية خالصة (في هيئة مشاهد أو لقطات)(10)، حتى تستخدمه في رسم حدود القصة وأحداثها، وتحديد أبعاد شخصياتها، التي تقدمها ضمن سياق خاص، وبشكل مختلف، لتمكينها من البوح بقوة عن يأسها وبؤسها، لا لأجل التنفيس أو إثارة الشفقة، بل لدفعها إلى حافة الجنون .. هذا الجنون الذي لا يمثل — بنظر دورا — منتهى دورة الحياة أو الواقع الرهيب، ولكنه

الطريق الوحيد لكي تعيش الشخصيات فرديتها، وتتعامل مع الواقع على أنه عرض من أعراض البؤس الإنساني.

وبصورة إجمالية، يرسم الفيلم ملامح شخصيات خيالية، تجرعت ألوان الاحتقار الازدراء والعنف وتتقاطع إلى حد بعيد مع الشخصيات التي عجت بها حياة دورا الشخصية، وتشابه معها في التعابير والكلمات والأفكار، عبر أسلوب الاعتراف وتداعي الذكريات التي رهنت حياة دورا برمتها، منذ الألم الطفولي إلى لحظة الانكفاء على الذات، لكتابة الرسائل، و الاستغراق في الحلم والأمل، هروبا من انكسارات الراهن، و تهديدات الفناء.

إن فيلم العاشق لمخرجه جان جاك أنو، اتسم بالطابع الشعري، وهو أنموذج حي للسينما التقليدية، من حيث تركيزه على الجانب السردي، وتعدد اللقطات الساكنة فيه، والتواتر المفتعل بين الموسيقى التصويرية والصور السينمائية من أجل خلق تأثيرات جمالية متعددة تحفز الإدراك البصري للمشاهدين على رؤية الحركة بما يتجاوز مضمونها الواقعي¹¹، مع تركيز كبير على التفاصيل الصغيرة، بواسطة الجمل القصيرة التي انطبع بها الحوار في السيناريو. وبالإجمال، فإن هذه المميزات تكاد تنسحب بشكل عام على كتابات دورا، وعلى السيناريوهات التي صاغتها بشكل خاص، وأسلوبها في إعداد سيناريو العاشق لا يختلف كثيرا عن نظيره في سيناريو أغنية الهند، فهو أسلوب غريبا روكي، يلتزم بالمعايير التقليدية للكتابة (40 ألف كلمة)، ولكنه يمثل توجهها أسلوبيا ناضلت لأجله دورا، في سبيل التأكيد على صعوبة الكتابة وعموم الصمت والكبت نتيجة عجز أداة اللغة، وتعذر التواصل الإنساني.

ولعل إقبال مارغريت دورا على تجريب شتى أشكال الكتابة: روايات، مسرحيات، وسيناريوهات، كان من قبيل البحث عن وسيلة ناجعة للتواصل والتعاش، وتجاوز اليأس، وتصعيد الرغبة في الحياة الهادئة .. وبالنهاية، تظل الكتابة - بنظر دورا - قلم الحياة التي "هي موجودة دون إرادة منا، نحن الذين نخططنا الحياة، وكثيرا ما نحتضنها، ونقبل عليها بغبطة" ¹².

الهوامش :

- 1 - جون ليشته :خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، تر: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2008، ص15.
- 2- وليم كلي رايت :تاريخ الفلسفة الحديثة، تر: محمود سيد أحمد، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 329.
- 3- جون ليشته :م س ص 477
- 4- محمد عبيدو :صورة الفنان التشكيلي في السينما، دار نينوى - دمشق، 2013، ص 130
- 5 - جون ليشته :م س ص 479
- 6- jacques lacan :duras by duras ; city light books ;san francisco 1987 , page 122.
- 7 - جهاد شارف :الفلسفة والنسوية، منشورات الاختلاف - الجزائر، ط1، 2013، ص 389.
- 8 - ينظر : م ن، ص 389.
- 9 - ينظر: ماجد مويرس إبراهيم : سيكولوجيا القهر والإبداع، دار الفارابي - بيروت ط1، 1999، ص 130 .
- 10- عدي عطا حمادي الياسين :أثر توظيف الحدث التاريخي في صياغة السيناريو وصناعة الفيلم السينمائي، الوراق للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص 29 .
- 11- ينظر: رضوان بلخيري :سيمولوجيا الخطاب المرئي، جسور للنشر والتوزيع، ط1، 2016، ص 105.
- 12- جهاد شارف : م س، ص 397.